

جزيرة سُفْر الأندلسيّة
(المكان والإنسان)
في الأدب الأندلسيّ

للدكتور صلاح جرار
الجامعة الاردنية

مقدمة

الباعثُ على هذه الدراسة، أنّ جزيرة سُفْر - على ضيق مساحتها وبعدها عن قلب الأندلس - شهدت أيام الحكم الإسلامي نهضة أدبية وعلمية نشطة، قلَّ أن تشهدها بقعة جغرافية مماثلة، وقد نشأ بأرض تلك الجزيرة من أعلام الأدب والفكر الجُمُّ الغفير ممَّن شهدتْ مصادر التراث الأندلسيّ بشهرتهم؛ فهي مسقط رأس ابن خفاجة وأبي المُطَرِّق بن عميرة وأبي طالب عبدالجبار وابن مرج الكحل وغيرهم من صدور الأدباء الأندلسيين. ولعلَّ هذه الدراسة، عن جزيرة سُفْر، تعين على تفسير ذلك النشاط الأدبي والعلمي الملحوظ الذي شهدته أرضها، وتسهم في الكشف عن بعض الظواهر الأدبيّة التي برزت في أعمال أدباء الجزيرة في الموضوعات والأساليب.

جزيرة سُقْر: الاسم والموقع والملاح الخاصة

أ- الاسم:

تختلف المصادر العربية في الصورة التي يُضَبِّطُ بها اسم هذه الجزيرة، فبعض هذه المصادر تجعله "سُقْر" بضم الشين وتسكين القاف^(١). وبعضها تجعله سُقْر، بفتح الشين وسكون القاف^(٢)، وبعضها الآخر تجعله سُقْر، بضم الشين وفتح القاف^(٣). وورد اسم الجزيرة في كتاب المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة "شوقر"^(٤). وورد الاسم بالقاف والكاف في مُعْجَم البلدان لياقوت، ومرصد

(١) وصف ابن خلكان جزيرة سُقْر بقوله: "وَسُقْر - بضم الشين المثناة وسكون القاف والراء- وهي بليدة بين شاطبة وبلنسية. انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٣م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٨ ج، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج ١، ص ٥٧. وضبط صفّي الدين البغدادي اسم هذه الجزيرة بقوله: "جزيرة سُكْر بضم الشين المعجمة وسكون الكاف، جزيرة في شرق الأندلس، ويقال جزيرة سُقْر" انظر: صفّي الدين البغدادي، عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣ ج، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٤-١٩٥٥، ج ١، ص ٣٣٢. ومن المصادر التي ضبطت الاسم بضم الشين وسكون القاف رايات المبرزين لابن سعيد المغربي، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد أيضاً (انظر: ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ - ١٢٨٨م)، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق الدكتور النعمان عبدالميتال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ١٢١؛ ابن سعيد المغربي، المُغْرَب في حُلَى المُغْرَب ٢ ج، حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٤، ج ٢، ص ٣٦٣، وانظر كذلك: E. Levi-Provençal: La "Description de L'Espagne" d'Ahmad al-Razi, *ANDALUS*, Vol. XVIII, 1953, p.71. *Djazirat Shuqr*.

(٢) انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله البغدادي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان ٥ ج، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٣، ص ٣٥٤؛ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة (سُقْر)؛ الزبيدي، تاج العروس، مادة (سُقْر)؛ ابن بختيار الكلبّي، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٢٣هـ/١٢٣٦م)، المُطْرَب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبدالحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت ١٩٥٥، ص ١١١.

(٣) انظر: ابن الدلاني، أحمد بن عمر بن أنس العذري (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٨م) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق الدكتور عبدالعزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥، ص ١٧.

(٤) ابن صاحب الصلاة، عبدالمملك (ت ٥٩٤هـ/١٢٠٠م)، تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين (السفر الثاني)، تحقيق عبدالهادي التازي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ص ٤٠٦، ٤٩١.

الإطّلاع لصفّي الدين البغدادي^(٥). ويسمّيها عبدُالواحد المراكشيّ في كتاب المعجب "جزيرة الشُّقر"^(٦).

ويسمّي ابن خفاجة في بعض شعره نهر شقر الذي تُنسبُ إليه الجزيرة بالمشقَّر، فمن ذلك قوله من قصيدة^(٧):

وَأَنْدُبُ عَهْدًا بِالْمُشَقَّرِ سَالِفًا وَظِلٌّ غَمَامٍ لِلصِّبَا قَدْ تَقَشَّعَا

وقوله من قصيدة أخرى^(٨):

وَتَنْدُبُ عَهْدًا قَدْ تَقَضَّى بِرَامَةٍ

ووكراً بأكنافِ المُشَقَّرِ خالِيا

ونجد هذه التسمية أيضاً في شعر أبي المطرّق بن عميرة – من أدباء جزيرة شُقُر- إذ يقول في بيت من إحدى قصائده^(٩):

وَيَنْدُبُ عَهْدًا بِالْمُشَقَّرِ فَاللَّوَى

وَأَيْنَ اللَّوَى مِنْهُ وَأَيْنَ الْمُشَقَّرُ؟!

وقد يعود الاختلاف في صورة اسم الجزيرة إلى اجتهادات المحقّقين والناشرين للمصادر التي ورد هذا الاسم في صفحاتها، وربما كانت هناك عواملُ أخرى لهذا الاختلاف مثل الاختلاف في الاسمين اللاتينيّ والإسبانيّ للجزيرة، إذ إنّ اسمها في اللسان اللاتينيّ Sucro واسمها في الإسبانية Jucar^(١٠).

أما تسميتها بالمشقَّر في شعر ابن خفاجة وابن عميرة، ابنيّ جزيرة شُقُر، فهي من

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ح ٣ ص ٣٥٧؛ صفّي الدين البغدادي، مراصد الإطّلاع ح ١ ص ٣٣٢.

(٦) عبد الواحد المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت بعد ٦٢١هـ / ١٢٢٤م)، المُعْجَب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة السابعة ١٩٧٨، ص ٥١٨.

(٧) ابن خفاجة، أبو اسحق إبراهيم بن أبي الفتح (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م)، ديوان ابن خفاجة، تحقيق الدكتور سيّد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٥٦.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٩) محمد بن شريفة، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٦، ص ٢٣١.

(١٠) الموسوعة الإسلامية، مادة: Djazirat Shuqr.

قبيل التمثّل للشعر العربي القديم في ذكر الأماكن المشرقية ومنها المُشَقَّر^(١١). وفي تسمية جزيرة سُقْر بالمشقّر يمتزج الحنين إلى الشرق بالحنين إلى أرض سُقْر، ويمتزج الماضي القريب بالماضي البعيد، وتلتقي سُقْر بالمشقّر بحر وفهما وبايحاءاتهما وبإشعاعهما في وجدان أدبيّ جزيرة سُقْر.

وإذا كان الخلاف على التسمية بين سُقْر (بفتح الشين) وسُقْر (بضمّ السين) فإننا نرجّح ضبطها بضمّ الشين للأسباب التالية:

١. إنّ هذا الاختلاف قد وقع فقط في المصادر غر الأندلسية، بينما تكادُ المصادر الأندلسية تُجمَع على جعلها بضمّ الشين.
٢. إنّ الاسمين اللاتيني والإسباني للجزيرة بيدآن بحركة الضم.
٣. إنّها وردت في أدب ابن خفاجة وابن عميرة وغيرهما من أدباء جزيرة سُقْر نفسها بالضمّ.

ومتى انحصر الخلاف على التسمية بين سُقْر (بتسكين القاف) وسُقْر (بفتح القاف) فإننا نحتكم إلى الشعر الذي وقع فيه اسم هذه الجزيرة، لأنّ الإخلال في ضبط الاسم في أيّ بيت وقع فيه يُخلُّ بالوزن الشعريّ للبيت، وقد ورد اسم جزيرة سُقْر بتسكين القاف في جميع الأبيات الشعرية التي ورد فيها هذا الاسم، فقد ورد غير مرة في شعر ابن خفاجة، فمن ذلك قوله في بيتٍ من إحدى قصائده:^(١٢)

بَيْنَ سُقْرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا حَيْثُ أَلَقْتُ بِنَا الْأَمَانِي عَصَاهَا

وقوله مشيراً إلى أصدقاء له:^(١٣)

قَدْ انْتَضَمُوا فِي نَحْرِ سُقْرِ قِلَادَةً

وكلُّهُمْ وَسَطِي فَنَاهِيكَ مِنْ عَقْدٍ

(١١) يختلف الجغرافيون المسلمون في تحديد مكان المشقّر، فيجعلها الحميريّ في "الروض المعطار" قصرأ بالبحرين، وقيل هي مدينة هجر، وقال ابن الأعرابي: إنها مدينة عظيمة في وسطها قلعة، وذكرها امرؤ القيس في شعره إذ يقول: دُوَيْنَ الصفا اللاني يلين المُشَقَّرَا (انظر: الحميري، محمد بن عبدالمنعم، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، حقّقه الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥، ص ٥٦٠).

(١٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤، الروض المعطار ص ٣٤٩.

(١٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٧.

وقوله متحدّثاً عن إحدى قصائده: (١٤)

نَشَأْتُ وَشُقُرٌ دَارُهَا وَكَأَنَّمَا

وَرَدَتْكَ زَائِرَةٌ مِّنَ الزُّورَاءِ

وقوله من قصيدة: (١٥)

وَحَنَّ إِلَى شُقُرٍ فَخَفَّ عَلَى السُّرَى

يَخُوضُ خَلِيجاً أَوْ يَجُوبُ كَثِيْباً

ووقع اسم نهر شقر في شعر أبي المطرف بن عميرة، فمن ذلك قوله: (١٦)

وَكَيْفَ بِشُقُرٍ أَوْ بِزُرْقَةٍ مَائِهِ

وفيه لشُقُرٍ أَوْ لِزُرْقٍ شَوَارِعُ

وقوله: (١٧)

وَدُونَ شُقُرٍ وَدُونَ زُرْقَتِهِ

أَزْرُقُ يَحْكِي قَنَاهُ أَوْ أَشَقَّرَ

وورد الاسم أيضاً في شعر لأبي القاسم عبدالرحمن بن خرشوش (١٨)، من

شعراء جزيرة شقر، حيث يقول: (١٩)

أَيَا رَاكِباً يَسْتَعْجِلُ الْخَطْوَ قاصِداً

أَلَا عُجَّ بِشُقُرٍ رَائِحاً وَمُغَادِيَا

إلى غير ذلك من الأمثلة.

(١٤) المصدر نفسه ص ٢٧٥.

(١٥) المصدر نفسه ص ١١٢.

(١٦) الروض المعطار ص ٣٥٠.

(١٧) المصدر السابق ص ٣٥٠.

(١٨) من أعيان جزيرة شقر في زمن المرابطين (المغرب في حلى المغرب ٢/٣٦٦؛ رايات المبرزين ١٢٢).

(١٩) ورد البيت في رايات المبرزين ص ١٢٣، لكنه ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٣٥٥) منسوباً إلى أبي عبدالله محمد بن عائشة، وكذلك أورده الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس (الفتح بن خاقان، أبو النصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبدالله القيسي الإشبيلي ت ١١٣٥/٥٢٩م، مطمح الأنفس ومسرح التأئس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، دار عمّار ومؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣/١٩٨٣م، ص ٣٤٩).

وتُعرَفُ هذه الجزيرة بعدة أسماء، هي: شُفْر، وجزيرة شُفْر، ومدينة شُفْر^(٢٠) والجزيرة^(٢١).

وهناك بعض الدلائل التي توحي بأن اسم "الجزيرة" هو واحد من الأسماء الرسميّة كثيرة الاستخدام للبقعة الجغرافية موضع البحث، وفيما يلي بعض هذه الأدلّة:

١. إن الجغرافيين دأبوا على إطلاق اسم "الجزيرة" على المناطق المحاطة بمياه الأنهار^(٢٢)، كما هو الشأن مع الجزيرة الفراتية وأرض الجزيرة في السودان.

٢. إن المصادر الأندلسية استعملت هذه التسمية كثيراً للإشارة إلى جزيرة شُفْر، ومن ذلك ما نصّ عليه صاحبُ فرحة الأنفس في قوله: "ومدينة الجزيرة، ومبتناها على جزيرة شُفْر"^(٢٣)، وما نصّ عليه ابن حيّان في كتاب المقتبس بقوله: "ثم أفتُتحت مدينة الجزيرة المنسوبة إلى شُفْر من كورة بلنسية"^(٢٤)، واكتفى ابنُ سعيد المغربي بتسميتها بالجزيرة في موضع في كتابه "القدح المعلّى"^(٢٥).

(٢٠) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون المسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ج، دار الطباعة الخديوية، بولاق، مصر، ١٢٨٤هـ، ج ٤ ص ١٦٦؛ وانظر أيضاً: الدكتور لطفي عبدالبديع، قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب من كُور الأندلس ومدنها بعد الأربعمئة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ١ ج ٢، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٨٥.

(٢١) ابن الأثير، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعيّ (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) الحلة السيراء ٢ج، حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٣، ج ٢ ص ٢٦٧ (الحاشية).

(٢٢) انظر: أبو عبيد البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٢ج، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ج ١ ص ٣٨١.

(٢٣) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٥.

(٢٤) ابن حيّان القرطبي، أبو مروان حيّان بن خلف (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م)، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، نشره: ب. شالميتا، ف. كورينطي، م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، وكلية الآداب/الرباط، ١٩٧٩ ج ٥ ص ٢٣٨.

(٢٥) انظر: ابن سعيد المغربي، أبو الحسن عليّ بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٨م) اختصار القدح المعلّى في التاريخ المعلّى (اختصره أبو عبدالله بن خليل)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، إدارة إحياء التراث، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٥٥ (السطر الأول).

٣. ورد اسمها على هذه الصورة "الجزيرة" في شعر عدد من شعرائها مثل ابن خفاجة^(٢٦) وابن مرج الكحل^(٢٧) وأبي عامر محمد بن الأصيلي^(٢٨).

٤. إن الاسم الرسمي الحالي لتلك المنطقة في الإسبانية هو Alcira أو Alzira وهو مأخوذ من كلمة "الجزيرة" بالعربية.

أما كلمة Jucar فهي اسمٌ للنهر الذي تُنسبُ إليه الجزيرة، ومع ذلك لا نجد في الإسبانية ترجمة حرفية لعبارة "جزيرة شقر" ولذلك لا يقال Alcira de Jucar على سبيل المثال، فكلمة Alcira تعني شيئاً غير الذي تعنيه كلمة Jucar.

ويبدو لي أنّ الأندلسيين زادوا كلمة شُقر على الجزيرة تمييزاً لها عن الجزيرة الخضراء أو عن جزيرة الأندلس، وأصبح اسمها بمرور الزمن – على صعيد التعامل الشعبيّ فقط – جزيرة شُقر.

ب- الموقع:

تنسب الجزيرة إلى نهر شقر الذي ينبع من المنطقة الجبلية الواقعة شمال شرق مدينة كونكة Cuenca ويصب في البحر الأبيض المتوسط جنوبي مدينة بلنسية، وتقع

(٢٦) انظر ديوان ابن خفاجة: الصفحات ٦٦، ١٢٨، ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٤٥.

(٢٧) هو أبو عبدالله محمد بن إدريس المعروف بمرج كُحل من مشاهير شعراء جزيرة شقر، شبهه ابن سعيد المغربي بلوآء الدمشقي، وله شعر في الغزل والمدح ووصف الطبيعة، وكانت وفاته سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م. (انظر ترجمته في: ربايات المبرزين ص ١٢٣؛ المغرب في حلى المغرب ٢/٣٧٣؛ لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م)، الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ ج، تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٣-١٩٧٧، ج ٢ ص ٣٤٣؛ الرعياني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الإشبيلي (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٩م)، برنامج شيوخ الرعياني، حققه: إبراهيم شيوخ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ٢٠٨).

انظر قوله:

أبئت نفسي هوى إلا شريشاً
ويا بُعد الجزيرة من شريش

(برنامج شيوخ الرعياني ص ١٠١).

(٢٨) يقول في شكواه من رؤساء جزيرة شقر:

حللت الجزيرة سُحْقاً لها
كأني حللت بسرانية

(انظر: العماد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الرابع ٢ ج، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم، دار نهضة مصر، ١٩٦٤، ج ٢ ص ٢٣٤).

جزيرة شقر بين فر عين لهذا النهر ينفصلان ثم يلتقيان قبيل مصبّه^(٢٩). وعلى ذلك فهي ليست جزيرة بحرية وإنما جزيرة نهريّة، ولذلك وصفها عبدالواحد المراكشي في كتاب المعجب بقوله: "وسمّيت جزيرة لأنها في وسط نهر عظيم قد حفّ بها من جميع جهاتها فلا طريق عليها إلا على القنطرة"^(٣٠)، ووصفها ابن سعيد المغربي في كتاب رايات المبرزين بقوله: "ليست بجزيرة في البحر وإنما نهرها أحرق بها"^(٣١)، كما وصفها ابن دحية في كتاب المطرب قائلاً: "وهي جزيرة قد أحرق النهر بها كما أحرق بحدقة شفر"^(٣٢).

ولهذا السبب لم يكن لها طريق بريّ، وبخاصّة عند فيضان النهر، يقول صاحب الروض المعطار في حديثه عن جزيرة شُقر: إنه قد "أحاط بها الوادي، والمدخل إليها في الشتاء على المراكب، وفي الصيف على مخاضة"^(٣٣)، وجاء في كتاب ترصيع الأخبار في وصف الجزيرة: "وهي جزيرة قد أحاط بها الوادي من جميع جهاتها ولم يبق له إلا موضع لطيف يُدخّل منه إلى هذه الجزيرة، قد صنّع فيه حفير، وعليها مما يلي ذلك سور، وباب يُصعدُ إليه على درج"^(٣٤). وفي رسالة بعث بها ابن خفاجة إلى صديقه أبي إسحق بن صواب بالمغرب يقدّم ابن خفاجة سبب انقطاعه عن مراسلة صديقه قائلاً: "... ومما أخلّ بعهد المطالعة أن الجزيرة - حرسها الله- بحيث لا يُسافر عنها ولا يُوردُ عليها"^(٣٥).

وتتبع جزيرة شقر لمديرية بلنسية في شرق الأندلس وتبعد عنها سبعة وثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب^(٣٦)، وتقع في منتصف رقعة طبيعية تعرف بـ"ريبير"

(٢٩) الموسوعة الإسلامية، مادة: Djazīrat Shuqr

(٣٠) المعجب ص ٥١٨.

(٣١) رايات المبرزين ص ١٢١.

(٣٢) المطرب ص ١١، وانظر أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٧/١.

(٣٣) الروض المعطار/ محمد عبدالمنعم الحميري ص ٣٤٩.

(٣٤) ترصيع الأخبار ص ١٩.

(٣٥) ديوان ابن خفاجة ص ٦٦.

(٣٦) في الروض المعطار (ص ٣٤٩) وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس للشريف الإدريسي (ص ١٩٢) أنها تبعد ثمانية عشر ميلاً جنوب بلنسية (الشريف الإدريسي، أبو عبدالله محمد ابن محمد الصقلي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م)، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨).

Ribera تشمل الجزء الأسفل من وادي شقر وتمتد من شاطبة (Jativa) جنوباً إلى قطروجة (Catarroja) شمالاً، ومن البحر الأبيض المتوسط شرقاً وحتى نهر كارثير (Carcer) غرباً^(٣٧).

وتقع جزيرة شقر على قارعة الطريق إلى مُرسية في الجنوب^(٣٨)، ومن جزيرة شقر إلى شاطبة جنوباً اثنا عشر ميلاً^(٣٩)، وعلى ذلك فإنها تقع بين بلنسية في الشمال وشاطبة في الجنوب^(٤٠).

ويجعل الإدريسي جزيرة شقر تابعة لإقليم أر غيرة^(٤١).

ووقوع الجزيرة على نهر شقر^(٤٢)، جعل منها طريقاً للبضائع التي تمرّ عبر النهر إلى البحر الأبيض المتوسط، ويُفهم ذلك من حديث الشريف الإدريسي عن حصن قلصة الواقع على نهر شقر قبيل الجزيرة، إذ يقول: "وقلصة حصن منيع تتصل به أجبلٌ كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير ويُقطع بها الخشب ويُلقى في الماء ويُحمل إلى دانية وإلى بلنسية في البحر، وذلك أنها تسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر، ومن جزيرة شقر إلى حصن قلبيرة، وتفرغ هناك على البحر، فثملاً منها المراكب وتُحمل إلى دانية، فثمنشاً منها السفن الكبار والمراكب الصغار، ويحمل إلى بلنسية منه ما كان عريضاً فيصرف في الأبنية والديار"^{(٤٣)*}.

(٣٧) الموسوعة الإسلامية، مادة Djazirat Shukr

(٣٨) صفة المغرب والسودان/ الشريف الإدريسي ص ١٩٢.

(٣٩) المصدر السابق ص ١٩٢، ترصيع الأخبار ص ١٩.

(٤٠) المعجب للمراكشي ص ٥١٨.

(٤١) صفة المغرب والسودان للشريف الإدريسي ص ١٧٥.

(٤٢) لمزيد من المعلومات عن نهر شقر والمدن الواقعة عليه انظر:

ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالمك الفاسي (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)، نظم الجمان ح ٦، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ص ١١٠-١١١؛ صفة المغرب والسودان، الشريف الإدريسي ص ١٩٢ وما بعدها؛ المقتبس لابن حيان ٣٥٨/٥؛ قطعة من فرحة الأنفس ص ٢٨٦.

(٤٣) صفة المغرب والسودان/ الشريف الإدريسي ص ١٩٥.

(*) للمزيد من المعلومات عن جغرافية جزيرة شقر انظر:

الأمير شكيب أرسلان، الحلل السنديسية في الأخبار والآثار الأندلسية ٣ ج، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ٣ ص ٢٢٩-٢٢٣؛

جـ طبيعة الجزيرة وملاحمها الخاصة:

إنّ وقوع جزيرة شقر بين ذراعَي النهر الذي ضرب حولها نطاقاً خافقاً من الماء، وإنّ انبساط رقعتها أمام جبل ربييرا جعلها تتمتع بطبيعة متميزة وخصب وافر، وتصفها المصادر والمراجع المختلفة بأنّها من أكثر بقاع الأندلس خصباً وجمالاً وخضرة^(٤٤).

وقد أشار الشريف الإدريسي إلى ذلك بقوله: "وجزيرة شُقر المذكورة حسنة البقاع كثيرة الأشجار والثمار والأنهار وبها ناسٌ وجلّة"^(٤٥)، ووقعت الإشارة إلى ذلك في ديوان ابن خفاجة إذ نجد ما نصّه في وصف تلك الجزيرة: "وحسبُك من ماء سائح وطير صادح وبطاح عريضة وأرض أريضة"^(٤٦)، ويضيف ابن دحية في كتاب المطرب إلى هذا الوصف قوله: "فلا ترى إلا انسجام الغمام ولا تسمع إلا ترنّم البلبل والحمام"^(٤٧). وجعلها ابن سعيد المغربي في كتاب "المغرب في حلى المغرب"، عروس الأندلس وقال في صفتها: "عروس الأندلس المقلدة من نهرها بسلك، المتلّفة من جنانها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، ولببل وحمّام، ومنظر يحثّ على حسو المدام كما قال حسنتها أبو إسحق بن خفاجة:

سُقيا لها من بطاح أنس
فما ترى غير وجه نهر
ودّوح حُسنٍ بها مُطلٍ
أطلّ فيه عذارٍ ظلّ"^(٤٨)

وكان أبو عبدالله محمّد بن عائشة الأمير المرابطي – من قادة المرابطين – مغرماً بتلك الجزيرة ولا يطيب له قضاء أوقات فراغه إلا فيها. ويفسّر الفتح بن خاقان في كتابه "مطمح الأنفس" ذلك بقوله: "فإنّها صحيحة الهواء، قليلة الأدواء،

A. Huici Miranda, "DJAZIRAT SHUKR" art. In Encyclopaedia of Islam.

(٤٤) الموسوعة الإسلامية، مادة: Djazirat Shukr.

(٤٥) صفة المغرب وأرض السودان/ الشريف الإدريسي ص ١٩٢، وورد هذا الوصف ذاته في الروض المعطار ص ٣٤٩.

(٤٦) ديوان ابن خفاجة ص ٢٩٠، المطرب لابن دحية ص ١١١.

(٤٧) المطرب لابن دحية ص ١١١.

(٤٨) المغرب في حلى المغرب ٣٦٣/٢.

خضلة العشب والأزاهر، فقد أحاط بها نهراً كما تحيط بالمعاصم الأساور، والأيك قد نشرت ذوائبها على صفيحه، والروض قد عطر جوانبه بريحه"^(٤٩). ويُزرع في جزيرة سُقْر في هذه الأيام البرتقال والأرز ونباتات الزينة^(٥٠).

ومن معالم الجزيرة في أيام المسلمين حسبما ذكرته المصادر العربية:
القنطرة التي أنشئت على نهر سُقْر ليعبر منها الناس إلى الجزيرة، وكان الناس يدخلون من باب ويصعدون على تلك القنطرة أو الجسر على درج^(٥١).
وباب الزخارف الذي ذكره ابن خفاجة في شعره^(٥٢)، والمرج والكنيسة والشط وهي أيضاً من المواضع التي ذكرها ابن خفاجة في شعره^(٥٣).
ويذكر الحميري في "الروض المعطار" أنه كان في جزيرة سُقْر "جامع ومساجد وفنادق وأسواق"^(٥٤) وورد ذكر الجامع في كتب التراجم^(٥٥).

ومن معالم جزيرة سُقْر التي جرى الحفاظ عليها زمنياً منزل شاعرها ابن خفاجة وقبره، وفي ذلك يقول ابن الأثير في كتاب التكملة في معرض حديثه عن ابن خفاجة: "ولم يزل قبره معروفاً بظاهر الجزيرة ومنزله بداخلها إلى أن ملكها الروم صلحاً وأخلوا أهلها في آخر سنة ٦٣٩هـ"^(٥٦)، وكذلك كان لها سور ذكره

(٤٩) مطمح الأنفس ص ٣٤٨، وانظر أيضاً: ابن بسّام، أبو الحسن عليّ بن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/١٤٨م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤ مجلدات في ثمانية أقسام)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، م ٣ ق ٢ ص ٨٨٩، المقرّي، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣٢م) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٨ ج، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ح ٤ ص ٥٤.

(٥٠) الموسوعة الإسلامية، مادة: Djazīrat Shukr

(٥١) ترصيع الأخبار ص ١٩، المعجب ص ٥١٨.

(٥٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠.

(٥٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٥، الروض المعطار ص ٣٥٠.

(٥٤) الروض المعطار ص ٣٤٩.

(٥٥) انظر: ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي (ت ١٣٠٦م/٧٠٣)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (السفر السادس)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣ ص ١٠٤؛ نفع الطيب ٢/١٦٠.

(٥٦) انظر: ابن الأثير القضاعي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البليسي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، التكملة لكتاب الصلة ٢ ج، نشره: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٦، ح ١ ص ١٤٤.

أبو عامر محمد بن الأصيلي في رسالة له^(٥٧)، وكان هذا السور يقع عند مدخلها وهو الذي أشار إليه صاحب ترصيع الأخبار بقوله – عند حديثه عن الجزيرة:- "ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدخَلُ منه إلى هذه الجزيرة قد صُنِعَ فيه حفير، وعليها مما يلي ذلك الموضع سور وبابٌ يُصعدُ إليه على درج"^(٥٨).
وفي الموسوعة الإسلامية أن قوات الري التي أنشأها خايمي الأول Jaime "1 ملك أراغون" الذي فتح جزيرة شقر في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، أقيمت على أنقاض قنوات الري العربية والقوطية قبلها"^(٥٩).

(٥٧) خريدة القصر ٢/٢٤٤.

(٥٨) ترصيع الأخبار ص ١٩.

(٥٩) الموسوعة الإسلامية، مادة: Djazīrat Shuḳr

الأحداث التاريخية على أرض الجزيرة إبان العهد الإسلامي

ارتبط تاريخ جزيرة شقر بتاريخ شرق الأندلس (بلنسية وما جاورها)، ولم تسجّل المصادر التاريخية أية أحداث هامة متصلة بهذه المنطقة حتى عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر^(٦٠).

فعندما ولي الناصرُ أمر الأندلس كانت البلادُ - كما يقول صاحب البيان المغرب - "جمرة تحتدم وناراً تضطرم شققاً ونفاقاً"^(٦١)، وكانت شرق الأندلس واحدة من تلك الجهات المخالفة، وقد تولّى بنو أبي الجوشن كبر الثورة في جزيرة شقر، وكانوا في نحو ستين رجلاً، وفي سنة ٣١٦ هـ نهض عبدالرحمن الناصر لإخماد تلك الثورة وتغلّب على بلنسية وشقر وغيرهما واستنزل الثائرين في جزيرة شقر من بني أبي الجوشن ونقلهم إلى قصر قرطبة وضرب رقابهم^(٦٢).

ويبدو أن أهل جزيرة شقر لم ينسوا ذلك للخلافة الأموية، فلما أن قامت الفتنة في عهد الخليفة هشام المؤيد حتى استقل مجاهد العامري ببلنسية ونواحيها، ولما اجتاز الخليفة هشام على جزيرة شقر لم يأذن له العامريون بدخولها^(٦٣)، وفي هذه الأثناء تتابع على مدينة بلنسية عدد من موالي العامريين مثل مبارك ومظفر ولييب ومجاهد، إلى أن بايع العامريون المنصور عبدالعزيز بن الناصر عبدالرحمن بن المنصور بن أبي عامر الذي استولى عليها وعلى شاطبة ومرسية وجزيرة شقر وغيرها سنة ٤٣٢ هـ. وظل المنصور عليها حتى وفاته ببلنسية سنة ٤٥٢ هـ^(٦٤).

(٦٠) لتعرّف على بعض الأحداث التاريخية التي وقعت في شرق الأندلس قبل عصر الخلافة الأموية انظر:

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٤ ج، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ح ٢ ص ٥٤-٥٥، ٥٧، ٧٠، ٩٠.

(٦١) المصدر السابق ١٥٧/٢.

(٦٢) المقتبس لابن حيان ٢٣٧/٥-٢٣٨؛ البيان المغرب ١٩٧/٢.

(٦٣) الذخيرة لابن بسام ٣ ق ١ ص ٥١٧.

(٦٤) البيان المغرب ١٦٤/٣-١٦٥، ٢٣٩، ٣٠١-٣٠٢.

انظر أيضاً: لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م)، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (أو تاريخ إسبانيا الإسلامية) تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٦، ص ٢٢٦-٢٢٦.

وبويع بعده ابنه عبدالملك بن عبدالعزيز، فانهمك في شرابه ومجونه إلى أن خلعه صهره المأمون يحيى بن ذي النون ملك طليطلة سنة ٤٥٧ هـ^(٦٥)، وجعل مكانه أبا عبدالله محمد بن عبدالعزيز المعروف برويش، لكن ما إن غادر المأمون بلنسية متوجهاً إلى مملكته طليطلة حتى ثار بلنسية أبو بكر محمد بن عبدالعزيز بن المنصور بن أبي عامر واستولى عليها وعلى جزيرة شقر^(٦٦)، إلى أن توفي أوائل سنة ٤٧٨ هـ^(٦٧).

وخلفه عليها ابنه أبو عمرو عثمان بن أبي بكر محمد بن عبدالعزيز، فلم يزل ملكاً عليها إلى أن سلم القادر بن ذي النون طليطلة لألفونسو السادس، فجاء القادر إلى بلنسية فدخلها قسراً بمساعدة ألفونسو سنة ٤٧٨ هـ^(٦٨) وحكمها هي وجزيرة شقر^(٦٩). فسام القادر الناس خسفاً، فثاروا عليه وبايعوا القاضي ابن جحاف^(٧٠)، فهرب القادر من قصره فطارده أهل بلنسية وقبضوا عليه وساقوه إلى ابن جحاف فأمر بقتله سنة ٤٨٥ هـ، واستولى على قصره ونخائره النفيسة^(٧١).

ولم يمض وقت طويل حتى حاصر السيد القمبيطور^(٧٢) مدينة بلنسية أشد الحصار إلى أن دخلها سنة ٤٨٨ هـ وقام بقتل ابن جحاف وحرق جثته^(٧٣). وكانت جزيرة شقر، قبل أن يستولي السيد القمبيطور على بلنسية، تتعرض هي وجاراتها من النواحي الواقعة جنوبي بلنسية لغارات متواصلة من السيد^(٧٤).

-
- (٦٥) البيان المغرب ٣/٣٠٣.
(٦٦) الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص ٥٩١ (في الترجمة لأبي عبدالرحمن محمد بن أحمد ابن إسحق بن طاهر).
(٦٧) البيان المغرب ٣/٣٠٤.
(٦٨) المصدر السابق ٣/٣٠٤، أعمال الأعلام ص ١٨٢.
(٦٩) الخريدة ٢/٢٤٣ (في ترجمة أبي عامر محمد بن الأصيلي).
(٧٠) أبو أحمد جعفر بن جحاف بن عبدالله بن جعفر بن عبدالرحمن بن جحاف بن يمن بن سعيد المعافري البلنسي (المقتول سنة ٤٨٨ هـ)، (البيان المغرب ٣/٣٠٥).
(٧١) البيان المغرب ٣/٣٠٥، أعمال الأعلام ص ١٨٢، ٢٠٣.
(٧٢) انظر كتاب: ملحمة السيد، درسها وقدم لها وترجمها الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠ (ص ١٢٧ وما بعدها).
(٧٣) البيان المغرب ٣/٣٠٦، ٤١/٤-٤٦، ١٤٩-١٥١؛ أعمال الأعلام ٢٠٢-٢٠٥.
(٧٤) ملحمة السيد ص ٣٣٤.

وبعد سقوط بلنسية أصبحت جزيرة شقر من النواحي الخاضعة للسيد القمبيطور، فقد جاء في تاريخ الأندلس لابن الكردبوس أنه في سنة ٤٩٠ هـ نهض محمد بن عائشة المرابطي - قائد جيش يوسف بن تاشفين - إلى ناحية جزيرة شقر وذكر أنه يؤمها ويقصدها ويقدمها، فالتقى بجملة من جند القمبيطور فأوقع بهم وقتلهم أشر قتلة، ولم يفلت إلا اليسير من تلك الحملة، فلما وصل الفلّ إليه مات همّاً وعمّاً^(٧٥).

وعلى إثر هذه الهزيمة التي ألحقها ابن عائشة بجيش القمبيطور تمكّن المرابطون من استعادة الجزيرة سنة ٤٩٠ هـ، ومضوا بعدها يسعون لاسترجاع مدينة بلنسية إلى أن نجح في ذلك القائد المرابطي أبو محمد مزبلي سنة ٤٩٥ هـ^(٧٦).

وغدت جزيرة شقر بعد تحريرها ولاية مرابطية، يُعيّن المرابطون ولايتها، وكان منهم أبو إسحق بن صواب، وأبو عبدالله بن عائشة^(٧٧)، وكان هذان الواليان صديقين لشاعر الجزيرة أبي إسحق بن خفاجة، وذلك ما تشير إليه الرسائل التي كان يوجّهها ابن خفاجة إليهما^(٧٨).

وكانت جزيرة شقر - في عصر المرابطين - متنزها يقضي فيه الولاة أوقات فراغهم كما هو مشهور عن أبي عبدالله محمد بن عائشة^(٧٩).

وعندما سقطت مدينة سرقسطة ونواح أخرى من شرق الأندلس سنة ٥١٢ هـ على يد ألفونسو الأول ملك أراغون، أصبحت جزيرة شقر وما حولها قاعدة ينطلق منها المدافعون عن تلك النواحي^(٨٠)، وقد هاجم ابن رنمير الجزيرة سنة ٥٢٠ هـ وسنة

(٧٥) انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نسان جديان، تحقيق: الدكتور أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١، ص ١٠٨-١٠٩؛ ملحمة السيد ص ٣٣٨.

(٧٦) البيان المغرب ٣/٣٠٦، ٤/٤١-٤٢؛ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١٠٩-١١٠.

(٧٧) انظر ديوان ابن خفاجة ص ٦٦.

(٧٨) المصدر السابق، وليس غريباً أن نجد ابن خفاجة يقدر هذين الزعيمين ويخلص الودّ لهما، فإليهما يرجع الفضل في استرجاع بلده وحمايتها وهي الموطن الذي هام ابن خفاجة في عشقه بل هو الموطن الذي كان مبعث الشاعرية الفذة عنده.

(٧٩) الذخيرة م ٣ ق ٢ ص ٨٨٩؛ مطمح الأنفس ص ٣٤٨؛ نفح الطيب ٤/٥٤.

(٨٠) الفاسي، علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٦٣.

٥٢٣ هـ وأوقع هزيمتين بالمرابطين^(٨١)، ولعل من الأسباب الرئيسية في هزيمة المرابطين أنهم كانوا منشغلين بمقاومة الدعوة الموحدية بالمغرب^(٨٢).

وفي أواخر عصر المرابطين نشبت ثورات عدّة في مدن الأندلس كان من بينها ثورة القاضي أبي مروان عبد الملك بن عبدالعزيز في بلنسية وكانت ثورته سنة ٥٣٩ هـ وانتهت بسيطرته على المنطقة الممتدّة من بلنسية إلى شاطبة، بما في ذلك جزيرة شقر، إلى أن ثار عليه جنده سنة ٥٤٠ هـ^(٨٣).

واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبدالرحمن بن عياض، كان النصارى يخافون منه كثيراً، فأقام بشرق الأندلس يحفظها ويدافع عنها إلى أن مات نتيجة جراح أصابته في فتنة نشبت بمرسية سنة ٥٤١ هـ^(٨٤).

وقام بعده بأمر شرق الأندلس محمد بن سعد بن مردنيش، وكان خادماً لابن عياض يحمل له السلاح ويتصرّف بين يديه في حوائجه^(٨٥) وكان والده سعد صهراً لابن عياض^(٨٦).

وبذلك تصبح جزيرة شقر من الأراضي التابعة لسلطة محمد بن سعد ابن مردنيش منذ سنة ٥٤٢ هـ^(٨٧)، إلى أن ظهرت دولة الموحدين بالمغرب وامتدّ سلطانها إلى الأندلس^(٨٨)، وإذ ذاك اصطدم ابن مردنيش بالموحدين قرب غرناطة سنة ٥٦٠ هـ فوُقت عليه الهزيمة^(٨٩)، وتحالف مع النصارى^(٩٠)، وعند ذلك خاف أهل شقر على أنفسهم

(٨١) نظم الجمان لابن القطان ص ١٠٩-١١١.

(٨٢) الأنيس المطرب ص ١٧١.

(٨٣) أعمال الأعلام ص ٢٥٦؛ العبر لابن خلدون ١٦٥/٤ (ويسميه ابن خلدون القاضي مروان بن عبدالله ابن مروان بن خصاب وأنه ثار ببلنسية سنة ٥٣٧ هـ).

(٨٤) المعجب ص ٣٠٥.

(٨٥) المصدر السابق ص ٣٠٥.

(٨٦) أعمال الأعلام ص ٢٥٩-٢٦٠؛ الإحاطة ١٢١/٢.

(٨٧) الإحاطة ١٢١/٢.

(٨٨) العبر لابن خلدون ١٦٦/٤.

(٨٩) أعمال الأعلام ص ٢٦١-٢٦٢؛ الإحاطة ١٣٧/٢.

(٩٠) الإحاطة ١٢٢/٢ وما بعدها؛ أعمال الأعلام ص ٢٦١؛ الذيل والتكملة/ السفر الأول/ القسم الثاني/ ص ٥٢٦ (في ترجمة: أحمد بن محمد بن هذيل).

فخلعوا طاعة ابن مردنيش وبايعوا أبا بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي العابد من أهل جزيرة شقر فقام بأمر تلك البلاد ودعا للموحدين وذلك في سنة ٥٦٦هـ^(٩١).

ويذكر صاحب كتاب "المنّ بالإمامة على المستضعفين" أنه في سنة ٥٦٥هـ ثار أهل شقر على ابن مردنيش وقاموا على النصارى الذين كانوا فيها، وأنهم اتّصلوا بالسيّد أبي حفص بن الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن الموحّدي، فوجّه إليهم والياً هو أبو أيوب بن هلال، فوصل إلى جزيرة شقر وضبطها، فنازله ابنُ مردنيش في جزيرة شقر^(٩٢).

وعندما قام أبو بكر بن سفيان المخزوميّ بثورته في جزيرة شقر ضد ابن مردنيش أواخر سنة ٥٦٦هـ، حاصره ابن مردنيش حصاراً شديداً وحاربه أمداً طويلاً، وفي ذلك نورد هذا النص من كتاب الحلة السيرة لابن الأثير: ^(٩٣)

"فأنفذ إليه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد^(٩٤) قائداً من كبار أصحابه في جملة من خيله ورسّم له حصاره والتضييق عليه، فبدأ بمنزلته منتصف شوال من سنة ست وستين وخمسائة، وأقام على ذلك إلى منتصف ذي الحجة، وابن سفيان يقاومه ويقوم بتدبير بلده، والأمداد تتلاحق في كلّ حين وتحقق به، وابن سعد وأخوه أبو الحجاج قد اكتنفاه في الجموع الكثيفة، حتّى خيف عن الوهن، فاقتحم البلد نو الوزارتين أبو أيوب بن هلال^(٩٥) مقوياً عزائم أهله، وضامناً لهم الاستقلال بضبطه، فتخلى ابن سفيان له عنه، راضياً في الظاهر متبرماً في الباطن، وتولّى ابن هلال من المصابرة في تلك المحاصرة، والمحاولة لتلك المصالحة، ما أبقاه أثراً مشهوراً، وخبراً تداولته الألسن دهوراً، واعتلّ ابن سعد خلال ذلك فلحق بمرسية، وألزم أخاه ملازمة البلد فتنفّس

(٩١) الحلة السيرة ٢/٢٦٨؛ الذيل والتكملة/ السفر الأول/ القسم الأول ص ٤٠٥-٤٠٦؛ أعمال الأعلام

٢٦٢، التكملة لكتاب الصلة ١/٧٦؛ وانظر: البيهقي، أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن

تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص ٨٨.

(٩٢) المنّ بالإمامة ص ٤٠٥-٤٠٦، ص ٤٧٠-٤٧١.

(٩٣) الحلة السيرة ٢/٢٦٨.

(٩٤) شقيق محمد بن سعد بن مردنيش.

(٩٥) هو الذي أنفذه الموحّدون إلى جزيرة شقر بناء على طلب أهلها، وقد سبق ذكره.

الخناق ثم انتعشت بوفاته الأرماق".

وقد كان هذا الحصار طويلاً ومشهوراً ووصفته المصادر التاريخية بالمحاصرة "الطويلة المشهورة"^(٩٦). وقد ضاق أهل جزيرة شقر بالحصار فأنفذوا رسائل استصراخ إلى خليفة الموحدين آنذاك يوسف بن عبدالمؤمن^(٩٧).

ويفهم من الروايات التاريخية التي وصفت هذا الحصار أنه بعد رجوع محمد ابن سعد بن مردنيش إلى مرسية ورفع الحصار عن الجزيرة ألق الموحّدون بدورهم عنها، ثم إن ابن مردنيش عاد إلى حصارها من جديد ليُخرج منها ابن هلال القائم بها، واستدعى ابن مردنيش أخاه أبا الحجاج ليعينه على منازلتها، فوصله وقصر به، ثم إن أبا الحجاج تخلى عن أخيه ابن سعد، وبادر إلى الموحّدين، مما زاد في علة محمد بن سعد بن مردنيش، فكرّ إلى مرسية ومات بها سنة ٥٦٧هـ^(٩٨).

وبعد موت ابن مردنيش دانت جزيرة شقر وبلاد شرق الأندلس كلّها للخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن بن عليّ الموحدي، وقد أكرم الموحّدون أبا بكر بن سفيان المخزومي بسبب ثورته على ابن مردنيش وأصبح لابن سفيان "أثرة عند أبي يعقوب بن عبدالمؤمن فمن بعده من عقبه والولة من قبلهم، اختصّ ابن سفيان هذا وبنوه بمعظمها"^(٩٩) وأصبحت جزيرة شقر محلّ رعاية الموحّدين وعنايتهم- مثلما كانت أيام المرابطين- وغدت قاعدة تنطلق منها الغارات على الإسبان في شمال الأندلس^(١٠٠).

أما بنو مردنيش فقد أصبحوا – بعد وفاة محمد بن سعد- من أنصار الخليفة الموحّدي وأصهاره، وتزوَّج الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن الموحّدي سنة ٥٦٩هـ

(٩٦) التكملة لكتاب الصلة ٧٦/١، الذيل والتكملة/ السفر الأول/ القسم الأول ص٤٠٦.

(٩٧) انظر الأبيات التي كتبها أبو المطرف محمد بن أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي لهذه الغاية (الحلة السبراء ٢/٢٦٩).

(٩٨) المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ص٤٠٦، ٤٧١؛ الذيل والتكملة/ السفر الأول ص٤٠٦؛ التكملة لكتاب الصلة ٧٦/١؛ الأنيب المطرب ٢١١؛ أعمال الأعلام ٢٦٢، وفي كتاب المعجب للمراكشي (ص٣٠٥)، أن وفاة محمد بن سعد بن مردنيش كانت في سنة ٥٦٨هـ.

(٩٩) التكملة لكتاب الصلة ٧٦/١؛ الذيل والتكملة / السفر الأول/ القسم الأول ص٤٠٦.

(١٠٠) المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ٤٩١ (في الحديث عن غزوة أبي يعقوب الموحّدي سنة ٥٦٧هـ إلى وبدة (Ubeda)).

من صفيّة بنت محمد بن سعد بن مردنيش وصنع لها مهرجناً عظيماً^(١٠١).
وتبعاً لذلك أسند الخليفة الموحدى ولاية بلنسية وجهاتها إلى أبي الحجاج
يوسف بن سعد بن مردنيش، وظلّ عليها إلى أن مات سنة ٥٨٢هـ^(١٠٢)، وخلف
جملة من الأبناء منهم: أبو الحملات مدافع، وأبو الظفر غالب، وأبو الحارث سبع،
وأبو سلطان عزيز، وأبو ساكن عامر، وأبو محمّد طلحة، وكانوا جميعهم ولاية
للموحدين على نواحي شرق الأندلس حتى نهاية الحكم الموحدى، وكان رئيس
جزيرة شقر من بين هؤلاء الأبناء أبو السلطان عزيز^(١٠٣).

* * *

وبعد وفاة الخليفة الموحدى المستنصر سنة ٦٢٠هـ، قامت ثورات عدّة في
جهات مختلفة من الأندلس ضدّ الموحدين، وعندها ثار بنو مردنيش على الموحدين
ببلنسية، وتولّى كبر ذلك أبو جميل زيّان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن
سعد، الذي ثار على أبي زيد عبدالرحمن بن يعقوب الموحدى، فاضطرّ الموحدى
إلى اللجوء إلى أراغون Aragon ودخل أبو جميل بلنسية سنة ٦٢٦هـ ودعا فيها
للخليفة العباسيّ ببغداد^(١٠٤)، واختلف أبو جميل مع بني عمّه عزيز بن يوسف بن
سعد بن مردنيش في جزيرة شقر فأطاعوا ابن هود^(١٠٥) وأصبحت شقر في طاعة
ابن هود.

وفي أثناء ذلك أخذ الأراغونيّون يتحرّشون ببلنسية ونازلوا مدينة أنيشة
سنة ٦٣٤هـ فخرج إليهم زيّان ومعه "أهل شاطبة وجزيرة شقر"^(١٠٦) فكانت عليهم
الواقعة العظيمة التي خسر فيها المسلمون كثيراً والتي عُرفت بوقعة أنيشة^(١٠٧).

(١٠١) الأنيس المطرب ص ٢١٢؛ أعمال الأعلام ص ٢٧١.

(١٠٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١-٢٧٢.

(١٠٣) المصدر السابق ص ٢٧٢.

(١٠٤) أعمال الأعلام ص ٢٧٢، العبر لابن خلدون ١٦٧/٤-١٦٨.

(١٠٥) محمد بن يوسف بن هود الجذامي، ثار على الموحدين في آخر أيامهم في مرسية وغيرها (انظر:
أعمال الأعلام ص ٢٧٧-٢٨٦).

(١٠٦) العبر لابن خلدون ١٦٧/٤.

(١٠٧) أعمال الأعلام ص ٢٧٢؛ العبر لابن خلدون ١٦٧/٤.

وأخذ خايمي الثاني Jaime II ملك أراغون يزحف نحو بلنسية فاستولى عليها سنة ٦٣٦ هـ بعد سنة من الحصار^(١٠٨)، وعند ذلك خرج زيّان إلى جزيرة شُفْر وأقام بدعوة الأمير أبي زكريا الحفصي في تونس وبعث إليه ببيعتهما مع أبي عبدالله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي الذي وصل إلى تونس وأنشد قصيدته المشهورة:

أدرك بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلَسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنجَاتِهَا دَرَسَا^(١٠٩)

إلا أنّ أبا زكريا لم يكذب يرسل نجداته حتى كانت بلنسية قد سقطت وتلاها بعد ذلك سقوط النواحي التابعة لها في شرق الأندلس.

أما جزيرة شُفْر فقد سقطت في يد خايمي الثاني في آخر سنة ٦٣٩ هـ صلحاً وأُخْرِجَ أَهْلُهَا مِنْهَا^(١١٠).

وفي حاشية الحلة السيراء أن جزيرة شُفْر سقطت سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م^(١١١)، مع أن المحقق يذكر في حاشية أخرى^(١١٢) أنها سقطت سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م.

وفي سنة ١٦٠٩ م قامت ثورة كبيرة في تلك الجزيرة طرد المسلمون على إثرها^(١١٣).

(١٠٨) أعمال الأعلام ص ٢٧٣؛ العبر لابن خلدون ١٦٧/٤؛ الروض المعطار ص ٩٧-١٠٠؛ الذيل والتكملة / السفر الأول / القسم الثاني / ص ٤٧٤.

(١٠٩) العبر ١٦٧/٤، أعمال الأعلام ص ٢٧٣.

(١١٠) التكملة ١٤٤/١ (في الترجمة لابن خفاجة)؛ نفح الطيب ٤٧٢/٤؛ الموسوعة الإسلامية (جزيرة شُفْر).

(١١١) الحلة السيراء ٣٠٦/٢.

(١١٢) الحلة السيراء ٢٦٧/٢.

(١١٣) المصدر السابق (الحاشية) ٢ / ص ٢٦٧.

جزيرة سُقْر في الأدب الأندلسي

نالَت جزيرة سُقْر من أدباء الأندلس – مثلما نالت من سلاطينها – نصيباً وافراً من الاهتمام قلماً نالته مدينة أخرى من مدن الأندلس، ولم يصدر هذا الاهتمام عن الأدباء الذي وُلدوا ونشأوا في تلك الجزيرة فقط وإنما نراه يصدر عن أعلام عرّجوا عليها وعرفوها أو أقاموا بها مدة من الدهر، غير أنّ الاهتمام الأكبر جاء من أدباء الجزيرة التي شهدت أرضها ولادتهم ونشأتهم في أحضان طبيعتها الفاتنة مثل أبي إسحق إبراهيم بن خفاجة وأبي المطرّف أحمد بن عميرة ومحمد بن إدريس بن مرج الكحل وأبي طالب عبد الجبار وأبي عامر محمد بن الأصيلي وغيرهم.

وقد أنجبت جزيرة سُقْر خلال تاريخها الإسلامي عدداً من الأدباء البارعين الذين تعلّقوا بها وخلّدوها في أدبهم، ولذلك وصفها ابن سعيد المغربي في كتابه اختصار القدح المعلى بأنّ "من عادتها إطلاع الأنجم الزهر" (١١٤).

وقد كانت العلاقة بين جزيرة سُقْر وبين أبنائها من أهل الأدب علاقة حميمة فقد تركت – بفضل طبيعتها الأخاذة وحسنها الفائق – آثاراً عميقة في شخصياتهم وفي أدبهم موضوعاته وأساليبه، فلا شك أنّ أرضاً هذه سماتها من شأنها أن ترقّ فيها المشاعر وتُصقّل الأذواق وتُشخّذ الأذهان، وتجعل ساكنها يشغف بها ويتعلّق بكلّ ذرّة من ترابها ويشتدّ إحساسه بالانتماء إليها، وأنّ أرضاً هذه صفتها لا بدّ أن تجتذب العشاق وتنجب الشعراء.

وإلى طبيعة هذه الجزيرة يرجع الفضل فيما جُبلَ عليه شعراؤها من تعشّق للطبيعة وإكثار من وصف عناصرها المختلفة، ومن شأن هذه الطبيعة أن تحرك عواطف الشعراء وترهف إحساسهم وترقّق مشاعرهم وتملأ أخیلتهم بالصور البديعة واللوحات الشعرية الجميلة.

(١١٤) اختصار القدح المعلى ص ٥٣.

ولذلك نجد جامع ديوان ابن خفاجة بيّن ما تركته الطبيعة الجميلة بجزيرة شُقر في شعره بقوله: "إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجريّة ماء، ورنّة طائر ما هو إلاّ لأنّه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطِرَ عليها وجِلَّة، وإمّا لأنّ الجزيرة كانت داره، ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادق، وبطاح عريضة، وأرض أريضة، فلم يعدم هنالك، من ذلك، ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرّك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حبّ ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كلف، لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبدّل وانتجاع"^(١١٥).

وقد تراوح الأدب، الذي تصدّى لذكر هذه الجزيرة، بين وصف طبيعتها الجميلة والعناصر المختلفة لتلك الطبيعة، أو ذكر لمعالمها وحنين إليها، أو تحسّر على أسباب اللهو التي كانت تجري في مرابعها، أو ندب لها، أو ذكر لبعض الحوادث التاريخية التي مرّت بها، أو رثاء للجزيرة بعد سقوطها أو غير ذلك.

أما وصف طبيعة الجزيرة، فيشتمل في العادة على وصف النهر الذي يحيط بها، وبطاحها ونسائمها وطيورها وأشجارها ووردها ونوارها ومكانة ذلك كلّه في نفس الشاعر، مع الاتكاء بصورة كبيرة على التصوير البديع وإيراد التشبيهات المختلفة والمبالغة أحياناً في تلك التشبيهات، فها هو ابن خفاجة - وهو أكثر من تغنى من شعراء الجزيرة بمحاسن بلده - يشبّه الجزيرة بالجَنّة حيث يقول^(١١٦):

فسقيا لأرضٍ ألفتنا فإنّها وإنّك قد فارقتها جنة الخلد

وعندما يتحدّث ابن خفاجة في مقطوعة له عن جنة الخلد في الأندلس فإنّه

يعني جزيرة شقر، حيث يقول:^(١١٧)

يا أهل أندلسٍ لله دركم	ماءٍ وظلٍّ وأنهارٍ وأشجارٍ
ما جنة الخلد إلاّ في دياركم	وهذه كنت لو خيّرت أختار

(١١٥) ديوان ابن خفاجة ص ٢٩٠.

(١١٦) ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٨.

(١١٧) المصدر السابق ص ٣٦٤.

لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً	فليس تُدْخَلُ بعد الجنة النارُ
--------------------------------	--------------------------------

وحيث يقول: (١١٨)

إنَّ للجنة بالأنْدلس
فسنا صُبْحَتِها من شَنَبِ
فإذا ما هبَّتِ الرِّيحُ صَباً
صِحتُ وأشوقني إلى الأندلس
وها هو ذا أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي يصف جزيرة شقر من رسالة له فيقول: "ويا لجنةٍ أجرى الله النهرَ تحته" (١١٩).

وكان ابن خفاجة من أكثر شعراء بلده وصفاً لطبيعة الجزيرة وتغنياً بمحاسنها وإفصاحاً عن عشقه لها وتعلقه بمعالمها، فهي هو يقول من قصيدة، بعد أن يصف فرسه الذي حمله إليها: (١٢٠)

وَخَنَّ إِلَى شُقْرِ فَخَفَّ عَلَى السُّرَى
يَخُوضُ خَلِيجاً أَوْ يَجُوبُ كَثِيباً
يَوْمٌ بِهَا أَرْضاً عَلَيَّ كَرِيمَةً
وَمُرْتَبِعاً فِيهَا إِلَيَّ حَبِيباً
وَنَهراً كَمَا ابْيَضَّ الْمُقْبَلُ سَلْسَلاً
وَجَزْعاً كَمَا اخْضَرَ الْعِذَارُ خَضِيباً
وَرُبَّ نَسِيمٍ مَرَّ يَخْطُرُ عَاطِراً
رَقِيقَ الْحَوَاشِي لَا يَخَسُّ دَبِيباً
وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ بَلَّةً
وَمِنْ نَوْرِ هَاتِيكَ الْأَبَاطِحِ طَيْباً

(١١٨) المصدر السابق ص ١٣٦، وقد قال هذه الأبيات في التثوق إلى الأندلس وهو في المغرب.

(١١٩) الروض المعطار ص ٩٨؛ نفع الطيب ٤/٤٩٣.

(١٢٠) ديوان ابن خفاجة ص ١١٢-١١٣.

فما كان إلا أن هتفتُ حمامةً
 وساعدتُ شوقي فاهتزتُ قضيباً
 وقد قلّد النوارُ جيداً لربوةٍ
 هناك ونَحراً للفضاء رحيباً
 وأفصحتِ الوراقُ في كلِّ تلعبةٍ
 نشيداً وقد رقّ النسيمُ نسيباً
 وكان على عهدِ السلوِّ تغديباً
 يهيجُ إطرابي فعادَ نحيباً
 دعا بغروبِ الدمعِ والدارِ غربةً
 فلم أرَ إلا داعياً ومُجيباً
 ويلاحظ القارئ لهذه الأبيات أن ابن خفاجة لا يكتفي، حين يصف بلده
 بتصوير معالم ذلك البلد، وإنما يصفه وصف عاشق له، فيبالغ في تصوير
 محاسنه. كما يصوّر لنا تفاعله مع طبيعة بلده وإقامة صلوات وجدانية بينه وبين
 عناصر تلك الطبيعة، فهو يهتفُ في أباطحها كالوراقاء ويهتز كالغصن ويأسى
 لفقدانها فتقيض عيونه بالدمع.
 ويبدو أن حبّ جزيرة شُقر قد وقع في قلوب كلِّ من عرفوها أو وطئوا
 أرضها من الشعراء من غير أبنائها، فهذا هو الشاعر ابن عابد الفاسي^(١٢١)،
 يتمنّاها أن تكون بديلاً لوطنه وأهله، لما توقّره لقاطنيها من الأمن والهدوء،
 حيث يقول من قصيدة موجهة إلى صديقه أبي العباس أحمد بن محمد بن خلف
 ابن يونس بن طلحة الشُقرّي سنة ٦٢٣ هـ وهما بمراكش^(١٢٢):

(١٢١) أبو عبدالله محمد بن علي بن العابد الفاسي المتوفى سنة ٦٩٠ هـ، كاتب وشاعر، قدم الأندلس سنة
 ٦٣٠ هـ، وارتسم بالكتابة عند محمد بن يوسف بن الأحمر ملك غرناطة (انظر: الذيل والتكملة لابن
 عبدالملك المراكشي/السفر الثامن/القسم الأول ص ٣٣٣؛ الإحاطة لابن الخطيب ٢/٢٨١).
 (١٢٢) الذيل والتكملة لابن عبدالملك المراكشي/السفر الأول/القسم الأول ص ٣٧٨.

سقى جزيرة شُقْرٍ صَوَّبَ خاطرهُ
فلستُ أرضى لها صَوْبَ الحيا الهَيِّنِ
أرضٌ بوْدِيَّ أَنْ أحظى بها عَوْضاً
عن الحظيَّينِ من أهلي ومن وطن
إذا استجار أخو حُزْنٍ بساحتها
أضحى مدى الدَّهْرِ في أَمْنٍ مِنَ الحَزَنِ
محلَّ كلِّ رئيسٍ ليس همته
إلاَّ ابتياعِ العُلَى بأنفس الثمن
ولا تُصَرِّفُ غيرَ العَضْبِ راحتهُ
أو اليراعةِ أو أشباهها الأذُن

ولئن كانت أبياتُ ابنِ عابدِ الفاسي هذه تذهب مذهب المجاملة، وتبدو فيها
العاطفة باهتة، فإننا نجد في شعر أبي عبدالله محمد بن عائشة المرابطي في
الحنين إلى جزيرة شقْرٍ وذكر محاسنها ما يعبر عن حبِّ صادق وعاطفة
جياشة، فما هو يقول من قصيدة له مطلعها: (١٢٣)
ألا خلياني والصِّبا والقوافيا أردها شجرواً فأجهش باكياً
بعد أبيات:

وقد بانَ حُلُو العيشِ إلاَّ تَعَلَّةُ
تحدّثني عنها الأمانِي خالِيا
فيا بَرَدَ ذاكِ الماءِ هل منك قطرةٌ
فها أنا أستسقي غمامَكِ صادِيا
وهيهاتَ حالتُ دون شُقْرِ وعَهْدِها
ليالٍ وأيّامٌ تُخالُ ليالِيا

(١٢٣) انظر هذه الأبيات في مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٣٤٩؛ معجم البلدان لياقوت الحموي
٣٥٤/٣-٣٥٥، وينسب ابن سعيد المغربي البيتين قبل البيت الأخير إلى أبي القاسم عبدالرحمن بن
خرشوش (رايات المبرزين ص ١٢٣).

فَقُلْ فِي كَبِيرِ عَادَهُ عَائِدُ الصِّبَا
فَأَصْبَحَ مُهْتاجاً وَقَدْ كَانَ سَالِيَا
فِيَا رَاكِباً مُسْتَعْمَلَ الْخَطُوقَا
أَلَا عَجْ بِشُقْرِ رَائِحاً وَمُعَادِيَا
وَقَفَّ حَيْثُ سَالَ النَّهْرُ يَنْسَابُ أَرْقَمَا
وَهَبَّ نَسِيمُ الْأَيْكِ يَنْفَتُ رَائِيَا
وَقُلْ لِأَثْيَالِ هِنَاكَ وَأَجْرُعِ

سُقَيْتِ أَثْيَالِ وَحُيَيْتِ وَايَا
وَهَنَاكَ شَعْرٌ غَيْرٌ قَلِيلٌ يَصِفُ مَا كَانَ يَدُورُ فِي أَنْحَاءِ جَزِيرَةِ شُقْرِ وَمِيَادِينِهَا
مِنْ مَجَالِسِ اللَّهْوِ الَّتِي كَانَ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْأَصْدِقَاءُ وَالْأَحِبَّةُ فِي الرِّيَاضِ
وَالْمَتَنَزِّهَاتِ وَعَلَى ضَفَافِ الْأَنْهَارِ وَفِي الْقَوَارِبِ النَّهْرِيَّةِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَصِيدَةُ
لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسِ بْنِ مَرْجِ الْكَحْلِ يَصِفُ فِيهَا عَشِيَّةَ قَضَاهَا مَعَ أَصْحَابِهِ عَلَى
ضَفَّةِ نَهْرِ شُقْرِ عِنْدَمَا كَانَتْ تَحْفَ بِهَ أَشْجَارِ الْبِرْتِقَالِ الَّتِي كَانَتْ تَزْدَانُ بِثَمَارِهَا
الْيَانِعَةَ، وَيَصِفُ فِيهَا أَيْضاً الْمَطَارِحَاتِ الشَّعْرِيَّةَ وَالْأَحَادِيثَ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَهُمْ
بَيْنَمَا الطُّيُورُ مِنْ حَوْلِهِمْ تَهْتَفُ بِأَغَارِيدِهَا^(١٢٤).

وَعَشِيَّةٌ كَانَتْ قَنِيصَةَ فُنْيِيَّةً
فَكَأَنَّهَا الْعَنْقَاءُ قَدْ نَصَبُوا لَهَا
شَمَلْتُهُمْ آدَابُهُمْ فَتَجَادَبُوا
وَالْوُرُقُ تَقْرَأُ سُورَةَ الطَّرَبِ الَّتِي
وَالنَّهْرُ قَدْ طَفَحَتْ بِهِ نَارَ نُجُهِ
فَتَخَالَهُمْ خَلَلِ السَّمَاءِ كَوَكْبَا
خَرَقُ الْعَوَائِدِ فِي السُّرُورِ نَهَارِهِمْ
وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَيْضاً قَصِيدَةٌ لِابْنِ خَفَاجَةَ قَالَهَا فِي زَمَنِ صِبَاهِ يَصِفُ فِيهَا
أَيَّامَ مَرَحِهِ وَطَرَبِهِ، وَعَشَايَا لَهْوِهِ وَلَعْبِهِ، بِبَابِ الزَّخَارِفِ، مِنْ أَبْوَابِ جَزِيرَةِ
شُقْرِ، يَقُولُ فِيهَا: (١٢٥)

(١٢٤) انظر هذه القصيدة في: معجم شيوخ الرعيبي ٢٠٨؛ نفح الطيب ٥٢/٥.

(١٢٥) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠-٢١١.

ألا رَبَّ يَوْمٍ لِي بِيَابِ الزَّخَارِفِ
رَفِيقِ حَوَاشِي الحُسْنِ حُلُوِّ المَرَاشِفِ
لَهْوَتُ بِهِ وَالدَّهْرُ وَسَنَانُ ذَاهِلِ
وَعُصْنُ الصِّدِّ بَارِيَانُ لَدُنِّ المَعَاظِفِ
أَعْطَى تَحَايَا الكَاسِ وَالأَسِ فَنِيَّةً
تَخَايَلُ سَوْدَ العُذْرِ بِيضَ السَّوَالِفِ
وَذَيْلُ رِداءِ العَيمِ يَخْفِقُ وَالصَّبَا
تَخِيْبُ وَمَوْجُ النُّهْرِ ضَخْمُ الرِّوَادِفِ
يَطِيرُ بِنَا فِيهِ شِرَاعُ كَأَنَّهُ
إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ أَحْشَاءُ خَائِفِ
وَقَدْ بَلَ أَعْطَافِ الثَّرَى دَمْعُ مُزْنَةٍ
تَحْيِرُ فِي جَفْنٍ مِنَ النَّوْرِ طَارِفِ
زَمَانٌ تَوَلَّى بَيْنَ كَأْسِ تَلِيدَةٍ
نُـدَارٌ وَعَيشٌ لِلحَدَاثَةِ طَارِفِ
وَشَمْسٌ لِلأَلَاءِ الزَّجَاجَةِ طَلْقَةٍ
وَظَلٌّ لِرِيعَانِ الشَّيْبِيَّةِ وَارِفِ (١٢٦)

ولابن خفاجة مقطوعة شعرية جميلة يصف بها وجدّه عندما مرّ بأبكة على
ضفاف نهر شقر كان يلتقي فيها مع محبوبته، ويقدم الفتخ بن خاقان في كتاب "قلائد
العقيان" هذه القصيدة بقوله: "وكانت بضفة الجزيرة أبكة يانعة، وكان هو ومن يهواه
يقعدان لديها، ويوسدان خدودهما ابرديها، فمرّ بها ومحبوبه قد طواه الردي، ولواه عن
ذلك المنندي، فتذكّر العهد وجماله، وأنكر صبره لفقده واحتماله، فقال:
ألا ذكرتني العهد بالأنس أبكةً

فأذكرتها نوح الحمام المطوق

وأكبت أبكي بين وجد أناخ بي

حديث وعهد للشيبية مخلوق

(١٢٦) انظر مثلاً آخر في ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٦-٣٤٩.

وأنشَقُ أنفاسَ الرياحِ تَعَلَّلاً
 فأعَدَمَ فيها طِيبَ ذاكِ التَّنَشُّقِ
 ولَمَّا عَلَتْ وَجْهَ النِّهَارِ كَابَةً
 وَدَارَتْ بِهِ لِلشَّمْسِ نَظْرَةً مُشْفِقِ
 عَطَفْتُ عَلَى الأَجْدَاثِ أَجْهَشُ تَارَةً
 وَأَلْتُمُ طَوُوراً تُرْبَهَا مِنْ تَشْوُقِ
 وَقَلْتُ لِمُغْفٍ لَا يَهَبُ مِنَ الكَرَى
 وَقَدْ بَتَّ مِنْ وَجْدٍ بِلَيْلِ المَوْرَقِ
 لَقَدْ صَدَعْتَ أَيْدِي الحَوَادِثِ شَمَلْنَا
 فَهَلْ مِنْ تَلَاقٍ بَعْدَ هَذَا التَّقَرُّقِ
 وَإِنْ تَكُ لِلخَلَّيْنِ نَمَّ التَّقَاءُ
 فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ أَوْ كَيْفَ نَلْتَقِي
 فَأَعِزُّ عَلَيْنَا إِنْ تَبَاعَدَ بَيْنَنَا
 فَلَمْ يَدْرُ مَا أَلْقَى وَلَمْ أَدْرُ مَا لَقِي (١٢٧)

وقد كان وقوع الجزيرة على ضفاف نهر شقر مدعاة إلى خروج أهل تلك
 الجزيرة إلى النهر بالقوارب إمّا للنزهة وقضاء الساعات الممتعة وإما لصيد
 السمك، وقد أورد ابن الأبار في تحفة القادم قصيدة أنشدها له أبو المطرف بن
 عميرة في وصف نزهة بنهر جزيرة شقر، وفي هذه القصيدة وصف للقارب
 الذي خرج به المتنزهون، وللشباك التي كانت معهم، وللسمك الذي اصطادوه
 في تلك الرحلة النهريّة، فيقول: (١٢٨)

خُذْ فِي حَدِيثِكَ إِنَّ وَصْفَكَ يُطْرِبُ

(١٢٧) الفتح بن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسي الإشبيلي
 (ت ٥٢٩هـ/١١٣٥م)، قلاند العقيان في محاسن الأعيان، مصورة عن طبعة باريس، قدّم له ووضع
 فهارسه محمد العناني، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٧٣.

(١٢٨) ابن الأبار القضاعي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البلنسي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)،
 المقتضب من تحفة القادم، نشرها الفريد بستاني، مجلة المشرق، بيروت، المجلد ٤١، السنة ١٩٤٧،
 ص ٥٧٥-٥٧٦.

عن يوم أنس ذكـرُه مُسْتَعْدَبُ
 واطلب أحاديثاً من الأيام إن
 سَمَحَتْ بذا وأظنّ ذلك يَصْعَبُ
 يومٌ أرانا الحُسنَ في النهر الذي
 قد طاب منه موردٌ أو مَشْرَبُ
 يمشي ويزجي مَوْجَهُ فكأنه
 لما انتهينا ما يوارى مقصَبُ
 وقد امتطينا زورقاً فيه فقلُ
 صُبْحُ تمشي في سناه غيبُ
 فتراه طوراً طائراً ولربّما
 ضمّت جناحاه إليه فيجنُبُ
 ولنا شباكٌ قد تجاذبَ عَزَلَهَا
 خدّان يطفو ذا وهذا يَزْسُبُ
 نُسِجَتْ كنسج الدّرع لكنّ الردى
 لم يَعْدُ لابسها إذا ما يطلبُ
 تُبدي لنا سَمَكاً أرادت أن يُرى
 حُسنٌ بها فلأجله تتقلَّبُ
 فكأنّها من جمرة الماء الذي
 حصباؤه من صفوة لا يُحْجَبُ
 يا نَهْرَ شُفْرِ فيك أدركتُ المني
 فلأذت من نَهْرٍ إليّ محبَّبُ
 يهنيك إذ حُزّت المحاسن كُلهَا
 أني سأشعرُ في حلاك وأخطبُ (١٢٩)

(١٢٩) ومن الأمثلة على وصف النزاهات في جزيرة شقر قول أبي جعفر أحمد بن طلحة من شعراء تلك الجزيرة:

يا هل ترى أظرف من يومنا قلد جيد الأفق طوق العقيق

ولم ينس شعراء جزيرة شقر بلدهم ومحاسنها إذا ما وقعت أنظارهم على أيّ مكان
يمثلها أو يشاركها في محاسنها، فها نحن نجد أبا المطرف أحمد بن عبدالله بن عميرة يصف
نزهة في نهر إشبيلية صدر سنة ٦١٧هـ باقتراح من ابن الأبار، فيذكره
نهر إشبيلية في مدّه وجزره بنهر جزيرة شقر، فيقول: (١٣٠)

يا حمصُ إنك في البلادِ فريدةٌ
ببديعِ حُسنِ جَلٍّ عن تحسينِ
أحبُّ بنهرِكِ حينَ يزخرُ مدُّهُ
فيروق منه تحرُّكُ كسكونِ
ويعودُهُ الجَزْرُ الذي يبقى على
شَطِئِهِ حَجْرًا دونَه للطَّيْنِ
مثل الجزيرة إن تقلص ثوبها
حَجَّاتٌ لِشَيْنٍ تحتَه مدفونِ
فكأنما هو عاشقٌ ذو زفرةٍ
تعتادهُ في الحين بعدَ الحينِ
إلخ

وقد بلغ تعلّق شعراء جزيرة شقر بلدهم حدًّا جعلهم لا يطيقون صبراً
عنها إذا ما كتب لهم فراقها طوعاً أو كرهاً، فصدرت عنهم قصائد في الحنين
إلى جزيرتهم تنبض بالحرارة وصدق العاطفة ورهافة الإحساس، وتنم عن
شغف بأرض جزيرة شقر لا يعادله شغف إلى أي موطن آخر، وأكثر شعر
الحنين إلى الجزيرة صادر عن شاعرها الأول ابن خفاجة الذي لم يكد يخرج
منها إلى الشمال الإفريقي حتى أحس برغبة جامحة في العودة إليها، وقبل أن
يتمكن من الوصول إليها جادت قريحته بعدد من القصائد البديعة في الحنين إلى
بلده، حيث ذكر محاسنها ومعالمها البديعة وذكرياته الماضية فيها، وحنينه

وأنطق الوُزقُ بعيديانها

مطربة كلّ قضيبٍ وريق

(نفح الطيب ١٥٤/٤)

(١٣٠) المقتضب من تحفة القادم ص ٥٧٤.

الجارف إلى العودة إلى أحضانها الدافئة ثانية وشكواه من التغرب عن الأهل
والديار، فمن ذلك قصيدة يتحدث فيها عن جزيرة شقر وإحاطة الوادي بها
ويتشوق إلى معالمها ويندب ماضي زمانه فيها: (١٣١)

بَيْنَ شُقْرِ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا
حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الْأَمَانِي عَصَاهَا
وَتَغْنَى الْمُكَّاءِ فِي شَاطِئِهَا
يَسْتَخِفُّ النَّهْيُ فَحَلَّتْ حَبَاهَا
عَيْشَةٌ أَقْبَلَتْ شَهِيَّ جَنَاهَا
وَارْفُ ظُلْمُهَا لَذِيذُ كَرَاهَا
لَعِبَتْ بِالْعُقُولِ إِلَّا قَلِيلاً
بَيْنَ تَأْوِيئِهَا وَبَيْنَ سُورَاهَا
فَانْتَنَيْنَا مَعَ الْغُصُونِ غُصُونَا
مَرَحاً فِي بَطَاجِهَا وَرُبَاهَا
ثُمَّ وَلَّتْ كَأَنَّهَا لَمْ تَكْدُ تَلْبَثُ
إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى حَاهَا
فَانْدَبَ الْمَرْجُ فَالْكُنَيْسَةَ فَالْشَطَّ
وَقَوْلَ آهٍ يَا مَعَاهِدُ آهَاهَا
آهٍ مِنْ عُبْرَةٍ تَرْفُرُقُ بِنَاءً
آهٍ مِنْ رُخْلَةٍ تَطُولُ نُوَاهَا
آهٍ مِنْ فُرْقَةٍ لَغَيْرِ تَلَاقٍ
آهٍ مِنْ دَارٍ لَا يَجِيئُ صَادَاهَا
لَسْتُ أَدْرِي وَمَدْمَعُ الْمُرْنِ رَطْبُ
أَبْكَاهَا صَبَابَةً أَوْ سَقَاهَا
فَتَعَالَى يَا عَيْنُ نَبْكِ عَلَيْهَا
مِنْ حَيَاةٍ إِنْ كَانَ يُغْنِي بُكَاهَا

(١٣١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤-٣٦٥؛ الروض المعطار ص ٣٤٩-٣٥٠.

وشبابٍ قد فاتَ إلا تناسيه
ونفْسٍ لم يَبْقَ إلا شَـجَاهَا
خَلَّ عيني تبكي عليها وقلبي
يتمنّي سـوَادُهُ لـو فـداها

ويظهر لي أن ابن خفاجة قد قال هذه الأبيات بعد سقوط مدينة بلنسية
وجزيرة شُقر في يد الكمبيطور سنة ٤٨٨ هـ.
وفي الحنين إلى الجزيرة والتشوق لأرضها في أثناء سفره يقول ابن
خفاجة: (١٣٢)

أَجَبْتُ وقد نادى الغرامُ فأسمعا
عشيّة غنّاني الحمامُ فرجعا
فقلتُ ولي دَمْعٌ ترفقُ فانهمي
يسيلُ وصبرٌ قد وهى فتَضَعَضَعا:
ألا هل إلى أرضِ الجزيرة أوبىة
فأسكُنْ أنفاساً وأهدأ مَضَجَعا
وأغدو بواديهـا وقد نَضَحَ الندى
معاطفَ هاتيك الرّبي ثمّ أقشعا
أغازلُ فيها للغزاةِ سنةً
تحطّ الصبا عنها من الغيم بُزُعا
وقد فضّ عقدَ القطرِ في كلِّ تلعةٍ
نسيماً تمشّي بينها فنَضَوَعا
وبات سقيطُ الطلّ يضربُ سرحة
تُرفّ بواديهـا وينفحُ أجرعا
وإن تَنَأْ مِنْ دارٍ إليّ حبيبةٍ
وحسبُك مصطافاً وناهيك مَرَبَعا

(١٣٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٢٨.

فقد تَرَكْتُني بين جفنِ جفا الكرى
وجنبِ تَقْلَى لا يلائِمُ مَضْجَعَا
أُقلْبُ طرفي في السماءِ لعلني
أشيمُ سنا بَرَقِ هناك تطلعا
.... إلخ

ومن هذا القبيل في التشوق إلى الوطن قوله أيضاً من قصيدة: (١٣٣)
فيا لَشْجَا صَدْرٍ من الصبرِ فارغِ
ويا لَقْدَى طَرْفٍ من الدَمْعِ ملانِ
ونفسٍ إلى جَوِّ الكنيسةِ صَبَّاةٍ
وقَلْبٍ إلى أُنْفِقِ الجزيرةِ حَتَّانِ
تَعَوَّضْتُ من واهاً بأهٍ ومن هوىٍ
بهونٍ ومن إخوانٍ صِدْقٍ بِخُوانِ
وما كلَّ بيضاءٍ تروقُ بشحْمَةٍ
ولا كلَّ مرعىٍ تَرْتَعِيهِ بسعدانِ
فيا ليت شعري هل لدهري عطفَةٌ
فتجمع أوطاري عليّ وأوطاني
ميادينُ أوطاري وَمَعْهَدُ لَدَّتِي
ومنشأُ تَهْيَامِي وَمَلْعَبُ غَزْلَانِي

كأن لم يَصِلْنِي فيه ظَبْيٌ يَقُومُ لي
لماه وصُدْغاه بِرَاحٍ وَرِيحَانِ
فسقياً لوادِيهم وإن كُنْتُ إِنَّمَا
أبَيْتُ لِنِذَاكِرِهِ بَغْلَةً ظَمَّانِ
فكم يومٍ لهوٍ قد أدْرْنَا بِأَفْقِهِ
نجومَ كَوْوسِ بَيْنَ أَقْمَارِ نُذْمَانِ
وللقُضْبِ والأطيارِ مَلْهُىً بِجِزْعِهِ

(١٣٣) المصدر نفسه ص ٣٤٥.

فما شئت من رقصٍ على رجع ألحان

ولابن خفاجة كثير من القصائد في هذا الغرض من الحنين إلى الوطن ومعالمه
ونكرياته المختلفة فيه^(١٣٤)، ولذلك قال عنه صاحب مطمح الأنفس إنه حينما "اشتعل
رأسه شيباً، وزرت عليه الكهولة جيياً، اقتصر على الحنين والشوق، وقنع بأدنى
تحية، وما يستشعره بوصف تلك العهد من أريحية ..."^(١٣٥).

ومن الذين أكثروا من الحنين إلى جزيرة شقر شاعرها وأديبها أبو المطرف
ابن عميرة، وكان أكثر أسفاراً من ابن خفاجة وأكثر تنقلاً عن وطنه، فمن ذلك قوله
من قصيدة يتذكر فيها مياه بلده ونسائمه وسكانه وشوقه إلى ذلك كله:^(١٣٦)

وللشرق في قلبي لبانة عاشقٍ
فيا لئت شِعري من يبلغها الشرقا
ألا إن ماءً فيه ما كنتُ أشتكي
لهيب الحشى لو كنتُ يوماً به أسقى
وطيب نسيم لا يرى من أضله
سوى اليأس منه أو يرى ذلك الأفقا
فمن مبلغُ سكانه أنَّ عهدَهُم
وإن هم أضاعوه على حِفْظِهِ أبقى
سلامٌ عليهم كيف كانوا فاتَهُم
وإن لم يرقوا لا أزالُ لَهُم رَقما

ونلاحظ في كل ما قيل في التشوق والحنين إلى جزيرة شقر أنه لا يغفل التغني
بطبيعتها الساحرة وما تحتويه من أنهار وأشجار وبلابل ونسائم عاطرة وغير ذلك،

(١٣٤) انظر أمثلة أخرى على ذلك في: فلاند العقيان ٢٧٣؛ النخيرة م ٣ ق ٢ ص ٨٩٠؛ الفتح ٤/٥٥؛ مطمح
الأنفس ص ٣٤٩، رايات المبرزين ص ١٢٣.

(١٣٥) مطمح الأنفس ص ٣٤٨-٣٤٩.

(١٣٦) الذيل والتكملة / السفر الأول / القسم الأول ص ١٧٢-١٧٣.

(*) يقصد شرق الأندلس (بلنسية وشقر وشاطبة ...).

ونلاحظ هناك تمازجاً بين الزمن المنصرم في حياة هؤلاء الشعراء وبين جزيرة شقر، فإذا ما وصف الشعراء جزيرة شقر تحدثوا عن ذكرياتهم الماضية في جنباتها، وإذا ما ندبوا أيامهم الماضية وتأسفوا على شبابهم ذكروا جزيرة شقر التي كانت ساحاتها ومنتزهاتها وشطآنها ميداناً رحباً لذكريات الشباب، وهذا التمازج بين أحاديث الماضي وذكريات الصبا والتعلق بالوطن واضح وجلي في كثير من قصائد ابن خفاجة، ففي سنة ٥١٠هـ يخرج ابن خفاجة عن جزيرة شقر اضطراراً لا اختياراً، ويحط رحاله في شاطبة - التي تقع على بعد ١٢ ميلاً فقط جنوب جزيرة شقر - ويأتي عيد الفطر وهو في شاطبة، وينشد ابن خفاجة قصيدة يهنئ بها أبا إسحق إبراهيم بن يوسف تاشفين في شاطبة، يبدأها بندب ماضيه والتحسر على بلده فيقول: (١٣٧)

سجعتُ وقد غنى الحمام فرجعا
وما كنت لولا أن تغنى لأسجعا
وأندب عهداً بالمشقر سالفاً
وظل غمام للصبا قد تقشعا
ولم أدر ما أبكي أرسنم شبيبة
عفا أم مصيفاً من سلمي ومزبعا
وأوجع توديع الأحبة فرقة
شباب على رغم الأحبة ودعا
وما كان أشهى ذلك الليل مرقداً
وأندى محيياً ذلك الصبح مطالعا
وأفصر ذاك العهد يوماً وليلة
وأطيب ذاك العيش ظلاً ومكرعا
زمان تقضى غير ذكرى معاهد
تسوم حصاة القلب أن تتصدعا
تحولت عنه لا اختياراً وربما
وجعت على طول التلدد أخدعا

(١٣٧) ديوان ابن خفاجة ص ٥٦؛ قلاند العقيان ص ٢٧٥.

ومن لي ببرد الريح من أبرق الحمى
وريبا الخزامى من أجارع لعلعا
وقد فات ذاك العهد إلا تذكراً
لواني على ظهر المطي توّجعا
وكنت جليد القلب والشملى جامع
فما انفض حتى خار فارفض أدععا
وبلت نجادي عبرة مستهله
أكفّف منها بالبنان تصنعا
وإني وعيني بالظلام كحيله
لأبى لجنبي أن يلائم مضجعا
وأكبر شائناً أن أرى الصبح أبيضاً
بعين ترى رُبَع الشبيبة بلقعاً
كأنّي لم أذهب مع اللهُو ليلة
ولم أتخايل بين ظلّ لسرحه
وسجع لغزّيد وماءٍ بأجرعا
ولم أزم أمالي بأزرق صائب
وأبيض بسّامٍ وأسمر أصلعا

* * * * *

وفي الأدب الأندلسي نصوص أدبية كثيرة ذات دلالات تاريخية، إذ صدرت عن أصحابها نتيجة أحداث تاريخية بارزة مرّت بها جزيرة شقر، بعضها متصل بالحوادث التي مرت بها الجزيرة زمن الطوائف، وبعضها مرتبط بحوادث مرت بها تلك الجزيرة في أواخر عصر المرابطين، وأكثرها شعر ونثر يندب جزيرة شقر إثر سقوطها في يد الأراغونيين أواخر سنة ٦٣٩هـ.
وفي هذا الإطار نجد رسالة كتبها أبو عامر محمد بن الأصيلي، من أدباء

الأندلس في القرن الخامس الهجري، إلى ذي الوزارتين أبي محمد بن أبي الفرج، يُعَرِّفُهُ فِيهَا مَا لَقِيَهُ مِنْ رُؤَسَاءِ جَزِيرَةِ شَقْرٍ عِنْدَ تَوَجُّهِهِ إِلَيْهَا^(١٣٨)، وَقَدْ بَدَأَهَا بِأَبْيَاتٍ مِنْهَا:

حَلَلْتُ الْجَزِيرَةَ سُحْقًا لَهَا كَأَنِّي حَلَلْتُ بِسَرْدَانِيَّةِ*
مُنِعْتُ الدَّخُولَ إِلَى أَهْلِهَا فَذُرْتُ كَمَا دَارَتِ السَّانِيَّةِ
وَبِتُّ ثَلَاثًا بِهَا طَاوِيًا قَرَايَ هُمُومِي وَأَحْزَانِيَّهِ
فَقُلْ لِابْنِ ذِي النُّونِ** مَا بَالَهُ يُوَلِّي الحِصُونَ بَنِي الزَّانِيَّةِ

ومن قوله في هذه الرسالة أيضاً:
" ... إلى أن وافيت الجزيرة، وأمالى بها كثيرة، ونزلت منها على مقادر شأوي،
وقدمت كتابك إلى الوزيرين الجليلين أبي جابر وابن طريف، أكرم الله بهما
أعواد الكنيف وكان من برهما أني نزلت خلف السور أخزى نزول:

حتى إذا رمت دخولاً أبثت نَفْسُ أَبِي الحَجَّاجِ لِي بِالدَّخُولِ
راسلته مستنزلاً داعياً فَكَادَ أَنْ يَقْطَعَ رَأْسَ الرِّسُولِ
أكرم به من قائد ماجدٍ يَصْلُحُ لِلْحَرْثِ وَرَعِي العُجُولِ

ويقول فيها أيضاً من شعر:
قل لابن ذي النون الرئيس الذي
ليس له شيء من البختِ
يا مالكاً يجعل قواده
قوماً عدواً بالسلب واللفت
جاءوا إلى الشرق جياً فما

(١٣٨) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ٢/٢٤٣-٢٤٨. (*) جزيرة في البحر المتوسط قبالة الساحل الشرقي للأندلس. (**) هو القادر بن ذي النون الذي استولى على بلنسية وشاطبة وشقر بمساعدة ألفونسو السادس سنة ٤٧٨ هـ (انظر الصفحات السابقة عن تاريخ جزيرة شقر)

يُثْبِتُ بِعُهُمْ شَيْءٌ مِّنَ السُّخْتِ

.....

لا جبر الله بني جابر

وزادَهُمْ مَقْتاً إِلَى مَقْتِ

وابن طريف لا رنا طرفه

ففي جسمه إلا إلى بزت

إن تأتبه في حاجة يعتذر

عُذْرٌ يَهُودٍ غُدْوَةَ السَّبْتِ

وتأتي قيمة هذه الرسالة من ندرة المعلومات التي تتحدث عن جزيرة شقر في

أيام استيلاء القادر بن ذي النون عليها، فهي على ذلك تلقي بعض الأضواء – وإن كانت باهتة- على فصل من تاريخ تلك الجزيرة.

وعندما ثارت جزيرة شقر – بزعامة أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن

سفيان المخزومي – في سنة ٥٦٦ هـ على محمد بن سعد بن مردنيش، وتعرضت

على إثر ذلك للحصار الشديد من قبل محمد بن مردنيش وأخيه أبي الحجاج يوسف،

كتب أبو المطرف محمد بن أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي،

قصيدة استنجد وجَّهها إلى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن

يستصرخه لاستنقاذ الجزيرة من بني مردنيش يقول فيها: (١٣٩)

تدارك أمير المسلمين دماءنا

فإني لك للإسلام والدين ناصر

ووجه إلى استنقاذنا بكتيبة

يهاب الردى منها العدو المحاصر

تنفس من ضيق الخناق بقطرنا

فتذكرك أمال وتزعى أواصر

إذا ما انكفى بالخزي وارتد خائباً

فمطمخه عن نيلها متقاصر

(١٣٩) الحلة السراء ٢/٢٦٩.

فليت ابن سعد إذ تألف مانعت
فلم تتمخض عن قواه العناصر
سندهب أنوار الخلافة ظلّمه
وتلفظّه بَعْدَ الخيولِ المقاصِرُ
ويهدم ما قد أسس الكفرُ عنده
كريمُ السنّا تُنثني عليه الخناصرُ
فهذا الذي يبني المساجد أمره
وأمرُ ابنِ سَعْدٍ أَنْ تُشَادَ المعاصِرُ
وذا المَلِكُ آياتُ المثاني تُهزّه
وذاك بأصواتِ المثاني البناصرُ
بقيت أمير المؤمنين مخلداً

وكلّ الورى عن كُنه وَصْفِكَ قاصِرُ
وعندما سقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ هـ بيد الأراغونيين، خَلَف سقوطها في
قلوب أدبائها حزناً عظيماً وألماً بالغاً خَلَدوه في نصوص شعرية ونثرية رفيعة
تنبض بالأسى والحسرة على فراقها وما آلت إليه، وبكوها بكاء مريراً، وكان أدبهم
فيها من أبلغ الأدب الذي قيل في بكاء المدن ورثائها، وقد كتب أبو المطرف بن
عميرة – الذي شهد سقوط تلك الجزيرة – رسالة إلى صديقه ابن الأبار القضاعي
البلنسي، ينعى له فيها بلنسية وجزيرة شقر، ويقول في فصل منها: (١٤٠)
"... ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشفرها، حتى أحاطت بجزيرة شقرها،
فأه لمسقط الرأس هوى نجمه، ولفادح الخطب سرى كلمه، ويا لجنة أجرى الله
النهر تحتها، وروضة أجاد أبو إسحق* نعتها، وإنما كانت داره التي فيها دب،
وعلى أوصاف محاسنها أكب، وفيها أنته منيته كما شاء وأحب، ولم تعدم بعده
محبين قشبيهم إليها ساقوه، ودمعهم عليها أراقوه..."
ويضمن ابن عميرة رسالته هذه قصيدة في رثاء شقر، يتألم فيها لما أصاب

(١٤٠) الروض المعطار ص ٩٨، نفع الطيب ٤/٤٩٣.

(*) ابن خفاجة.

الجزيرة مازجاً هذا الألم بالحنين والتشوق لمعالمها وذكرياته فيها ورحلات الصيد
التي كان يقوم بها في واديهما فيقول: (١٤١)
أَقْلُوا ملامِي أَوْ فقولوا وَأَكْثِرُوا
مَلْؤُكُمْ عما به ليس يُفْصِر
وهل غير صبِّ ما تني عبرائه
إِذا صَعَدَتْ أنفاسُهُ تتحدَّر
يحنّ وما يجدى عليه حنينه
إلى أربُبعٍ معروفُها متنكَّر
ويندب عهداً بالمشقَّر فاللوى
وأين اللوى منه وأين المشقَّر
تغيّر ذاك العهد بعدي وأهله
وَمَنْ ذا على الأيام لا يتغيَّر
وأفقر رسم الدار إلا بقيةً
لسائلها عن مثل حالي تخبر
فلم تبقِ إلا زفرةً إثر زفرةٍ
ضلوعي لها تنقُدُ أو تنفطُر
وإلا اشتياقٌ لا يزال يهزني
فلا غايَةٌ تدنو ولا هو يفتُر
أقول لساري البرق في جُح ليلة
كلانا بها قد باتت يئكي ويسهَرُ
تعرض مجتازاً فكان مذكِّراً
بعهد اللوى والشيء بالشيء يُذكِّرُ
أتأوي لقلبٍ مثل قلبك خافقٍ
ودمعٍ سفوحٍ مثل قطرك يقطُرُ
وتحملُ أنفاساً كومضيك نارها

(١٤١) نفع الطيب ٤/٤٩٣-٤٩٥.

إذا رفعت تبدو لمن يتتور
 يقر بعيني أن أعين من نأى
 لما أبصرتك منك عيناى تبصر
 وأن يتراءك الخليط الذين هم
 بقلبي وإن غابوا عن العين حُضِرُ
 كفى حزننا أنا كأهل محصب
 بكل طريق قد نقرنا وننفر
 وإن كلتنا من مشوق وشائق
 بنار اغتراب في حشاه تسعر
 ألا ليت شعري والأمانى ضلة
 وقولي ألا ياليت شعري تحير
 هل النهر عقد للجزيرة مثلما
 عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهر
 وهل للصبا ذيل عليه تجره
 فيزور عنه مؤجأة المتكسر
 وتلك المغاني هل عليها طلاوة
 بما راق منها أو بما رق تسحر
 ملاعب أفراس الصبابة والصبأ
 تروح إليها تارة وتبكر
 وقبلي ذاك النهر كانت معاهد
 بها العيش مطلق الخميعة أخضر
 بحيث بياض الصبح أزرار جبيه
 تطيب وأردان النسيم تعطّر
 ليال بماء الورد ينفح ثوبها
 وطيب هواء فيه مساك وعبّر
 وبالجبلى الأدنى هناك خطى لنا

إلى اللهو لا تكبو ولا تتعثر
جناباً بأعلاه بهاراً وترجس
فأبيض مفتراً الثنايا وأصفر
وموردنا في قلب قلبت كمقلة
حذاراً علينا من قذى العين تستر
وكم قد هبطنا القاع ندع وحشه
ويا حسنة مستقبلاً حين يذعر
نقود إليه طائعا كل جارح
له منخر رخب وخصر مضمر
إذا ما رمينا به عبت به
مؤللة الأطراف عنهن تكشر
تضم لأروى النيق حزان سهلها
وقد فقت فيها مهارة وجوذر
كذلك الى أن صاح بالقوم صائح
وأندر بالبين المشتتت مذر
وفرقتهم أيدي سبا وأصابهم
على غرة منهم قضاء مقدر

وقد أجاب ابن الأبار عن تلك الرسالة برسالة أخرى مماثلة، ووجهها إلى صديقه ابن عميرة ومن فصول هذه الرسالة:
"... ثم لم يلبث داء عقرها أن دب إلى جزيرة شقرها، فأمر عذبتها النمير، وذوى غصنها النضير، وخرست حمائم أدواجها، وركدت نسائم أرواحها..."^(٤٢).
ولأبي المطرف بن عميرة في رثاء جزيرة شقر شعر كثير يكشف في معظمه عن حزن وحنين وتشوق وحسرة، فمن ذلك قوله من قصيدة كتب بها إلى

(١٤٢) الروض المعطار ص ١٠٠؛ نفح الطيب ٤/٤٩٨.

صديقه أبي عبدالله بن محمد بن الجنان المرسى: (١٤٣)

تَذَكَّرَ عَهْدَ الشَّرْقِ وَالشَّرْقُ شَاسِعٌ
وَذَابَ أَسَىُّ لِلبُرْقِ وَالْبُرْقُ لَامِعٌ
وَاتَّبَعَ ذِكْرَ الْجِرْعِ أَنَّهُ مُوجِعٌ
لَهُ أَبْدَأُ قَلْبُ عَلَى الْجِرْعِ جَارِعٌ
كَفَى حَزْنَا نَائِيٍّ عَنِ الْأَهْلِ بَعْدَمَا
نَأَيْنَا عَنِ الْأَوْطَانِ فَهِيَ بِلَاقِعِ
نَوَى غَرْبَةٍ حَتَّى بِمَنْزِلِ غَرْبَةٍ
لَقَدْ صَنَعَ الْبَيْنُ الَّذِي هُوَ صَانِعٌ
أَجْنُ إِلَى أَرْضٍ تَقَادَمَ عَهْدُهَا
وَمِنْ دُونِهَا أَيْدِي الْخَطُوبِ الْمَوَانِعِ
وَكَيفَ بِشُقْرِ أَوْ بَزْرُقَةٍ مَائِهِ
وَفِيهِ لَشُقْرِ أَوْ لَزْرُقٍ مَشَارِعٌ*
وَلَهُ أَيْضًا قَصِيدَةٌ أُخْرَى يَصِفُ فِيهَا حَالَ جَزِيرَةِ شُقْرِ بَعْدَ سِقُوطِهَا. يَقُولُ فِي
أَبْيَاتِ مِنْهَا(١٤٤):
وَعَادَ قَلْبِي مِنْ شَرْقٍ أَنْدَلِسِ
عَيْدُ أَسَىِّ قَنَّهُ وَمَا قَنَّرَ
فَأَيْنَ مَنَا مَنَازِلُ عَصَفَتْ
رِيحٌ عَلَيْهَا مِنَ الْعِدَا صَرَصَرُ
وَدُونَ شُقْرِ وَدُونَ زُرُقَتِهِ
أَزْرُقُ يَحْكُمِي قَنَاهُ أَوْ أَشُقْرُ
وَالرُّومُ حَرْبٌ لَنَا وَهُمْ وَشَلُّ

(١٤٣) الذيل والتكملة / السفر الأول / القسم الأول / ص ١٧٣؛ الروض المعطار ص ٣٥٠.
(*) الشقر والزرق في الشطر الثاني من البيت الأخير إشارة إلى الأراغونيين.
(١٤٤) الروض المعطار ص ٣٥٠، أبو المطرف بن عميرة حياته وأدبه ص ٢٣٢ نقلاً عن رسائل أبي
المطرف المخطوطة.

سـالـمـه الـسـوارـدون فـاسـنـتـبـحـر
إنا لنرجو للدهر فيئة من
أناب ممّا جناه واسنّ تغفر
ونرقب الكرة التي أبداً
بها على الرّوم لم نزل نخبر

ومثلما يقوم رثاء الأشخاص على ذكر محاسنهم ومآثرهم، فكذلك يشتمل رثاء المدن على ذكر محاسن المدينة التي تؤول إلى السقوط، ولذلك نجد جميع النصوص الشعرية والنثرية التي قيلت في رثاء جزيرة شقر حافلة بوصف محاسن تلك الجزيرة ومعالمها وبخاصة وصف طبيعتها الجميلة وما اشتملت عليه من أنهار لألاءة ونسائم عطرة ومنازل كانت مربعاً للهو والانطلاق، وحدائق زاخرة بالورود والرياحين، وبطاح كانت ميداناً للصيد والقنص، وحمّام وطيور لا تكف عن الغناء والطرب، ولا يخلو نصٌّ من هذه النصوص من مقارنة بين حال الجزيرة قبل سقوطها وحالتها بعد السقوط، أو مقارنة بين حال أهلها قبل رحيلهم عنها وبعد الرحيل، مثلما لا تخلو هذه النصوص من وصف ما يحس به أصحابها من ألم وأسى لما أصاب الجزيرة ومن وجد وشوق لأيامها الخوالي.

* * *

= خاتمة =

تلك هي جزيرة شقر الأندلسية، كانت موضع إعجاب الجغرافيين، ومستراح المتنزهين، ومحطّ المصطافين والمتربعين، ومتعلّق قلوب الشعراء والأدباء من أبنائها المخلصين، وموضوع كثير من القصائد، كانت ميدان صراع بين الإسبان والمسلمين، وكان في نهرها مجال رحب للنزهة وصيد الأسماك، وكان لشواطئها جمال بارع، ولبساتينها سحر فائق يجذب إليه عشاق الحياة حيث يختلط الحب بالشعر والنسائم وتغريد الطيور، وكانت بواديهما مكاناً لرحلات الصيد ... وكانت طبيعتها من أجمل ما وُهبَ لأرض الأندلس، مما جعل أبنائها يتعلقون بها ويهيمنون بمحاسنها، ويرونها جنة الخلد، فخلدوها في ذكرياتهم وفي أدبهم الذي رقّ برقة أهل تلك الجزيرة وطبيعتها.

وفي جزيرة شقر اليوم من آثار المسلمين بقايا حصن قديم فقط، لكنها لم تنزل من أجمل بقاع إسبانيا ويزرع فيها البرتقال والنخل والأرز وغيرها، ويبلغ عدد سكانها حسب إحصائية ١٩٨٥ واحداً وأربعين ألفاً.

غير أن واحداً من فرعي نهر شقر المحيطين بالجزيرة هو في هذه الأيام نهر جاف، وتسقى مزرعاتها بقناة يعود تاريخها إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.